

هجرة بني معقل وأثرها في بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط: دراسة في التحولات
الديموغرافية والثقافية

**The Migration of the Banu Ma'qil and Its Impact on the Islamic
Maghreb during the Medieval Period: A Study of Demographic
and Cultural Transformations**

د. مغراوي سميرة

قسم العلوم الانسانية ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر - الجزائر -

samirameghraoui@univ-mascara.dz

تاريخ الاستلام: 2026..03..30 تاريخ القبول: 2026./05./22

الملخص:

يعالج هذا البحث ظاهرة هجرة بني معقل إلى بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، مسلطاً الضوء على دور هذه القبائل في تعريب المجال الصحراوي، وإعادة تشكيل البنية الاجتماعية والسياسية، فضلاً عن تأثيرها في المجال الاقتصادي. وقد اعتمد البحث على مصادر تاريخية أساسية، وعلى رأسها مؤلفات ابن خلدون، مستفيداً من التحليل التاريخي المقارن لتبيان مسارات الهجرة وآليات تأثيرها. تشير نتائج الدراسة إلى أن بني معقل، رغم بدايات هجرتهم المحدودة، تمكنوا من التحول من جماعة صغيرة إلى قوة مؤثرة، ساهمت في: نشر اللغة العربية في الصحراء وتعريب القبائل المحلية، وإعادة تشكيل البنية القبلية وإنتاج هويات مركبة عربية-بربرية، وصولاً إلى تحقيق توازنات سياسية جديدة من خلال تحالفاتهم واستقلالهم الجزئي عن السلطة المركزية، وتنشيط التجارة الصحراوية وتأمين طرق القوافل، رغم التأثير المحدود على الاستقرار الحضري والزراعي. ويخلص البحث إلى أن هجرة بني معقل لم تكن مجرد حركة سكانية، بل عنصر محوري في بناء الفضاء الثقافي والاجتماعي العربي-الصحراوي، مؤكداً أهميتها في فهم التحولات العميقة التي عرفها المغرب الوسيط على المستويات الديموغرافية واللغوية والاجتماعية والسياسية.

الكلمات المفتاحية: هجرة بني معقل، المغرب الإسلامي، التعريب، الصحراء، البنية القبلية

Abstract:

This study examines the migration of the Banu Ma'qil to the Maghreb during the medieval period, highlighting the role of these tribes in Arabising the Saharan regions and reshaping the social and political structures, as well as their impact on the economic sphere. The research primarily relies on primary historical sources, most notably the works of Ibn Khaldun, employing a comparative historical analysis to trace the migration routes and assess their mechanisms of influence.

The findings indicate that, despite the modest beginnings of their migration, the Banu Ma'qil transformed from a small group into a significant political and social force, contributing to:

- The spread of the Arabic language across the Sahara and the Arabisation of local tribes;
- The reconfiguration of tribal structures and the emergence of hybrid Arab-Berber identities;
- The establishment of new political equilibria through their alliances and partial autonomy from central authority;
- The stimulation of trans-Saharan trade and the security of caravan routes, albeit with a limited effect on urban and agricultural stability.

The study concludes that the migration of the Banu Ma'qil was far more than a mere demographic movement; it constituted a pivotal factor in constructing the Arab-Saharan cultural and social space, underscoring its significance in understanding the profound transformations that occurred in the Maghreb during the medieval era across demographic, linguistic, social, and political dimensions.

Keywords: Banu Ma'qil, Islamic Maghreb, Arabisation, Sahara, Tribal Structure

1. مقدمة

شكلت الهجرات العربية إلى بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط تحوُّلاً تاريخياً جوهرياً، انعكس بوضوح على البنية الديموغرافية والثقافية والسياسية للمنطقة. ورغم أن الدراسات التاريخية اهتمت بشكل واسع بهجرات بني هلال وبني سليم، فإن هجرة بني معقل تظل ذات أهمية خاصة، نظراً لدورها البارز في المجال الصحراوي، حيث أسهمت في تعريب مساحات واسعة، وإعادة تشكيل العلاقات القبلية، وتنشيط النشاط الاقتصادي المرتبط بالقوافل والمسالك الصحراوية.

لقد شهد المغرب الإسلامي خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين موجات متعاقبة من الهجرات العربية، شكلت عاملاً مركزياً في إعادة ترتيب التوازنات السكانية والثقافية. ورغم أن هجرة بني معقل بدأت بأعداد محدودة، فإن قدرتها على التكيف والتحالف مع القبائل المحلية مكّنها من فرض حضور مؤثر في المجال الصحراوي، وتحقيق آثار ديموغرافية، لغوية، اجتماعية وسياسية ملموسة.

2. إشكالية الدراسة وتساؤلاتها

كيف أسهمت هجرة بني معقل في إعادة تشكيل البنية الديموغرافية والثقافية والسياسية لبلاد المغرب الإسلامي، لا سيما في المجال الصحراوي؟

3. منهج الدراسة

المنهج النقدي للمصادر الذي يعمل على تتبع نشأة قبائل بني معقل ومسار هجرتها زمنياً ومجالياً،^[1] تحليل الظروف السياسية التي رافقت انتقالهم، خاصة في سياق ضعف الدولة المركزية خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين .

^[2]قراءة الروايات التاريخية، خاصة عند ابن خلدون، قراءة نقدية لاستخلاص المعطيات المرتبطة

بالهجرة

4. نتائج الدراسة ومناقشتها

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل هذه الهجرة من منظور شامل، عبر رصد أبعادها الديموغرافية واللغوية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، مستندة إلى المصادر التاريخية الأساسية مثل كتابات ابن خلدون، والدراسات المعاصرة التي تناولت التأثير الهلالي والمعلقي على المغرب الوسيط.

مجالات استقرار بني معقل وانتشارهم

اتخذت هجرة بني معقل بعداً مجالياً واضحاً، حيث اتجهت هذه القبائل نحو الاستقرار في الأقاليم الجنوبية من بلاد المغرب الإسلامي، خاصة في المجالات الصحراوية وشبه الصحراوية. وقد شملت مواطنهم الأساسية مناطق: درعة، تافيلالت، وادي نون، ثم امتدت إلى عمق صحراء المغرب الأقصى والأوسط، وصولاً إلى بلاد شنقيط (موريتانيا حالياً)، ويعكس هذا التوزيع اختياريّاً استراتيجياً لمجال يتلاءم مع نمط عيشهم البدوي. وفي هذا الإطار، يورد ابن خلدون في كتاب العبر وصفاً دقيقاً لانتشارهم، قائلاً: "ومواطنهم بالقفار من المغرب الأقصى، وانتهوا إلى البحر المحيط" (ابن خلدون، 1971، ج 6، ص 66)، ويكشف هذا النص عن امتداد جغرافي واسع لبني معقل، حيث لم يقتصر وجودهم على الأطراف الجنوبية للمغرب الأقصى، بل شمل كذلك مجالات أوسع في الصحراء الكبرى، وهو ما تؤكدته إشارات أخرى عند ابن خلدون تفيد بتوغلهم في نواحي المغرب الأوسط، وتحركهم المستمر داخل الفضاء الصحراوي (ابن خلدون، 1971، ج 6، ص 68). ومن الناحية القبلية، تفرّع بنو معقل إلى بطون رئيسية، من أبرزها: ذوو حسان، وذوو منصور، وذوو عبيد الله، وقد لعبت هذه البطون دوراً محورياً في توسيع مجال النفوذ المقلقي، خاصة فرع بني حسان الذي ارتبط اسمه لاحقاً بالمجال الصحراوي الغربي.

إن تتبع مجالات انتشار بني معقل يكشف عن جملة من الخصائص البنيوية: أولاً الطابع البدوي

الصحراوي

حيث اختارت هذه القبائل الاستقرار في المجالات الجافة والهامشية، بعيداً عن المراكز الحضرية، وهو ما ينسجم مع نمطها الرعوي القائم على الترحال، وقد أشار عبد الله العروي إلى هذه الخاصية بقوله: "إن القبائل العربية التي انتشرت في المغرب اتجهت أساساً نحو المجالات المفتوحة التي تسمح بالحركة والانتجاع" (العروي، 2000، ص 112).

ثانياً التحكم في المسالك الصحراوية فانتشار بني معقل في درعة ووادي نون والصحراء لم يكن عفويّاً، بل مكّنهم من السيطرة على طرق التجارة العابرة للصحراء، وهو ما منحهم وزناً اقتصادياً واستراتيجياً. وفي هذا السياق، يؤكد جاك بيرك قائلاً: "إن السيطرة على الفضاء الصحراوي تعني بالضرورة التحكم في شبكات التبادل التجاري بين الشمال وإفريقيا السوداء" (Berk, 1955 112 ص).

ثالثاً الامتداد المجالي الواسع فلم يكن انتشار بني معقل محصوراً في المغرب الأقصى، بل شمل المغرب الأوسط ومناطق واسعة من الصحراء، مما جعلهم يشكلون جسراً بشرياً وثقافياً بين المغرب والصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء.

رابعاً الوظيفة التاريخية للانتشار، فقد أسهم هذا التوزيع في إدماج الصحراء ضمن المجال الحضاري المغربي، حيث تحولت من هامش جغرافي إلى مجال فاعل في التبادلات الاقتصادية والثقافية. يمكن القول إن انتشار بني معقل لم يكن مجرد امتداد جغرافي، بل كان تعبيراً عن استراتيجية تكيف مع المجال الصحراوي، وسعي للسيطرة على الموارد والمسالك، ودور تاريخي في ربط المغرب بعمقه الإفريقي، وهو ما يجعلهم أحد أهم الفاعلين في تشكل المجال الصحراوي خلال العصر الوسيط.

أصول بني معقل وسياق هجرتهم

تنتمي قبائل بني معقل إلى الأصول العربية القحطانية ذات الامتداد اليميني، مما يجعلها جزءاً من التيار القبلي الجنوبي الذي شارك في التحولات الديموغرافية الكبرى في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط. ارتبط دخولهم إلى بلاد المغرب بالموجة الهلالية في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، غير أن هذه الهجرة اتسمت بخصوصية واضحة، تمثلت في طابعها التدريجي ومحدودية عددها في مرحلتها الأولى.

يقول ابن خلدون في كتابه العبر: "وكان دخولهم إلى المغرب مع بني هلال في عدد قليل لا يُعتدّ به" (ابن خلدون، 1971، ج 6، ص 66)، يكشف هذا النص أن بني معقل لم يشكلوا في البداية كتلة بشرية وازنة، بخلاف بني هلال وبني سليم، وهو ما يفسّر غيابهم النسبي عن مراكز الثقل السياسي في إفريقيا خلال المرحلة الأولى. إلا أن محدودية العدد لم تكن عائقاً أمام تحولهم إلى قوة مؤثرة، إذ أتاح لهم نظام القبيلة في المجال المغاربي إمكانيات التوسع عبر التحالفات القبلية والاستتباع والاندماج الاجتماعي.

يؤكد ابن خلدون هذا المسار التحولي بقوله: "وكثرُوا بمن انضاف إليهم من القبائل، والتحموا بمن جاورهم" (ابن خلدون، 1971، ج 6، ص 75) يفهم من هذا النص أن بني معقل اعتمدوا استراتيجية الاحتواء الاجتماعي، حيث لم يظلوا إطاراً نسبياً مغلقاً، بل تحولوا إلى كيان قبلي مركب استوعب عناصر بشرية متنوعة، خاصة من القبائل الصنهاجية، مما يعكس مرونة البنية القبلية في الغرب الإسلامي.

أما من حيث المسار الجغرافي، فقد استقر بنو معقل أولاً بإفريقية، غير أن ضغط القبائل الهلالية دفعهم إلى النزوح نحو المجالات الجنوبية. يذكر ابن خلدون ذلك قائلاً: "فلما ضاقت بهم المواطن بإفريقية، انحازوا إلى القفار، ونزلوا بأرض المغرب الأقصى" (ابن خلدون، 1971، ج 6، ص 68)

يعكس هذا الانتقال تحول بني معقل من مجال الاستقرار النسبي إلى البداوة الصحراوية، حيث وجدوا في الصحراء فضاءً ملائماً لنمط عيشهم، مع القدرة على السيطرة على المسالك التجارية العابرة للصحراء. إذ تمثل تجربة بني معقل نموذجاً للهجرة التراكمية، التي تعتمد على: التكيف البيئي، المرونة الاجتماعية، القدرة على بناء شبكات تحالف.

كما يشير الباحث جاك بيرك قائلا: "إن القبائل العربية بالمغرب لم تنتشر فقط بفعل الكثرة العددية، بل بفضل قدرتها على إدماج المجموعات المحلية ضمن بنيتها" (ص 112 Berk, 1955) وعليه، فإن هجرة بني معقل ليست حركة انتقال سكاني بسيطة، بل مسار تاريخي مركّب أسهم في إعادة تشكيل المجال الصحراوي ومهد لظهور فضاء اجتماعي جديد قائم على التمازج العربي-البربري.

مجالات استقرار بني معقل وانتشارهم

اتجهت هجرة بني معقل نحو الاستقرار في الأقاليم الجنوبية من بلاد المغرب الإسلامي، خاصة في المجالات الصحراوية وشبه الصحراوية، شملت مواطنهم مناطق: درعة، تافيلالت، وادي نون، ثم امتدت إلى صحراء المغرب الأقصى والأوسط وصولاً إلى بلاد شنقيط (موريتانيا حالياً).

يورد ابن خلدون وصفاً دقيقاً لانتشارهم: "ومواطنهم بالقفار من المغرب الأقصى، وانتهوا إلى البحر المحيط" (ابن خلدون، 1971، ج. 6، ص. 68)، أما من الناحية القبلية، فقد تفرّع بنو معقل إلى بطون رئيسية، أبرزها: ذوو حسان، ذوو منصور، وذوو عبید الله، حيث لعب فرع بني حسان دوراً محورياً في توسيع النفوذ المعقلي بالمجال الصحراوي الغربي.

الطابع البدوي الصحراوي فقد اختار بنو معقل الاستقرار في المجالات الجافة والهامشية، بعيداً عن المراكز الحضرية (العروي، 2000، ص. 112)، وذلك بهدف التحكم في المسالك الصحراوية ما مكّنهم من السيطرة على طرق التجارة العابرة للصحراء (Berk, 1955، ص. 145).

الامتداد المجالي الواسع والذي شمل المغرب الأوسط ومناطق واسعة من الصحراء، ما جعلهم جسراً بشرياً وثقافياً بين المغرب والصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء، الأمر الذي منح لهم وظيفة تاريخية للانتشار فأسهم هذا التموقع في إدماج الصحراء ضمن المجال الحضاري المغربي.

أثر الهجرة المعقلية في تعريب المغرب

يُعدّ أثر بني معقل في تعريب المجال الصحراوي من أبرز النتائج التاريخية المترتبة عن هجرتهم إلى بلاد المغرب الإسلامي، إذ أسهموا في إحداث تحوّل لغوي وثقافي عميق، خاصة في الأقاليم الجنوبية التي كانت خاضعة في معظمها للعنصر الصنهاجي ذي اللسان الأمازيغي، وفي هذا السياق، يورد ابن خلدون في

كتاب العبر نصاً حاسماً في توصيف هذا التحول، حيث يقول: "وغلّبوا على تلك المواطن، فصارت لغتهم هي الغالبة" (ابن خلدون، 1971، ج. 6، ص. 70)، ويكشف هذا النص عن انتقال نوعي في البنية اللغوية للمجال الصحراوي، حيث لم تعد العربية مقتصرة على الحواضر ومجالات العلم والإدارة، بل تحولت إلى لغة يومية متداولة في البوادي، وهو ما يمثل نقلة من التعريب النخبوي إلى التعريب المجتمعي الشامل. لقد ترتب عن هذا التحول تعريب قبائل صنهاجة التي كانت تستوطن تلك المجالات، حيث اندمجت تدريجياً ضمن البنية القبلية العربية، وتبنت اللغة العربية في التخاطب والتعبير. ويؤكد ابن خلدون هذا المسار بقوله: "واختلطوا بهم، فغلّبوا على لسانهم وعوائدهم" (ابن خلدون، 1971، ج. 6، ص. 75)، ومن أبرز تجليات هذا التعريب نشوء اللهجة الحسانية، المرتبطة بفرع بني حسان من بني معقل، والتي أصبحت اللغة السائدة في الصحراء الغربية وبلاد شنقيط، ولا تزال إلى اليوم تمثل أحد أهم المكونات اللغوية في تلك المجالات.

يمكن تفسير الدور التعريبي لبني معقل من خلال جملة من العوامل: أولاً الانتشار في المجال الصحراوي المفتوح، حيث أتاح الطابع البدوي لهذه القبائل إلى انتشار واسع في مناطق قليلة الكثافة السكانية، مما سهّل فرض لغتهم على الجماعات المحلية. ثانياً الاندماج القبلي فلم يكن التعريب نتيجة هيمنة قسرية فقط، بل جاء أيضاً عبر التمازج الاجتماعي والتحالفات، وهو ما أدى إلى تبني العربية بوصفها لغة مشتركة. ثالثاً الوظيفة الثقافية للقبيلة حيث مثلت القبيلة إطاراً لنقل اللغة والعادات، فكانت العربية تنتقل مع البنية القبلية ذاتها. وفي هذا السياق، يذهب الباحث عبد الله العروي إلى أن: "تعريب المغرب لم يكن حدثاً فجائياً، بل مساراً تاريخياً طويلاً ساهمت فيه القبائل العربية، خاصة في المجالات القروية والصحراوية" (العروي، 2000، ص. 118).

كما يؤكد جاك بيرك أن: "العربية في المغرب انتشرت بفضل البنيات القبلية التي حملتها إلى أعماق البوادي" (Berk, 1955، ص. 167). ومن هذا المنظور، يمكن اعتبار بني معقل فاعلاً أساسياً في نقل العربية من: لغة نخبة حضرية (علمية وإدارية) إلى لغة يومية شعبية في البوادي والصحراء، وهو ما يمثل تحولاً عميقاً في تاريخ المغرب الثقافي، إذ أدى إلى خلق فضاء لغوي عربي ممتد من درعة إلى موريتانيا، تتداخل فيه العناصر العربية والأمازيغية ضمن بنية ثقافية واحدة.

يتضح أن أثر الهجرة المعقلية في التعريب تجلّى في: تعريب المجال الصحراوي، واندماج القبائل الصنهاجية ضمن الثقافة العربية الأمر الذي أدى إلى نشوء اللهجة الحسانية، وعمل على انتقال العربية من مستوى

النخبة إلى مستوى العامة، وبذلك فإن بني معقل أسهموا في ترسيخ الطابع العربي للمجال الصحراوي، وفي بناء وحدة لغوية وثقافية امتدت عبر غرب الصحراء الكبرى.

الأثر السياسي والعسكري لبني معقل

شكل بنو معقل أحد الفاعلين الأساسيين في إعادة تشكيل التوازنات السياسية والعسكرية ببلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، خاصة في مجاله الصحراوي. وقد تميز دورهم بالتحول التدريجي من وضعية التبعية السياسية إلى موقع الهيمنة الميدانية، وهو ما انعكسه بوضوح نصوص ابن خلدون فقد أشار في كتاب العبر إلى طبيعة هذا التحول بقوله: "كانوا في أول أمرهم أحلافاً لزناة، ثم استبدوا بالقفار" (ابن خلدون، 1971، ج. 6، ص. 72)، وفي موضع آخر يضيف: "فلما ملكت زناتة البلاد... تفردوا في البيداء" (ابن خلدون، 1971، ج. 6، ص. 73)، تكشف هذه النصوص عن مسار سياسي واضح، يمكن تقسيمه إلى مرحلتين أساسيتين مرحلة التبعية والتحالف وفي هذه المرحلة، ارتبط بنو معقل بعلاقات حلف مع قبائل زناتة، التي كانت تمثل قوة سياسية كبرى في المغرب الأوسط والأقصى. وقد مكّتهم هذا التحالف من الاستقرار في المجال المغربي، والاستفادة من الحماية السياسية، الأمر الذي أدى إلى الاندماج التدريجي في التوازنات المحلية، غير أن هذه التبعية لم تكن خضوعاً كاملاً، بل كانت علاقة مصالحية قائمة على تبادل المنافع، وهو ما ينسجم مع طبيعة التنظيمات القبلية في المغرب الوسيط. مرحلة الاستقلال والسيطرة مع ضعف السلطة المركزية، خاصة خلال فترات التحول السياسي، استطاع بنو معقل الانفصال تدريجياً عن حلفائهم، وفرض سيطرتهم على المجالات الصحراوية. ويعبر قول ابن خلدون "استبدوا بالقفار" عن هذا التحول نحو الاستقلال السياسي الميداني. إن هذا التحول لا يمكن فهمه إلا في سياق أوسع يتسم بهشاشة السلطة المركزية حيث أتاح ضعف الدول المتعاقبة، خاصة في أطراف المجال المغربي بروز قوى قبلية محلية. وفي هذا السياق، يؤكد عبد الله العروي أن: "ضعف الدولة في المغرب الوسيط كان يفتح المجال أمام القوى القبلية لملء الفراغ السياسي" (العروي، 2000، ص. 121).

التحكم في المجال الصحراوي، فقد مكّنت طبيعة المجال الصحراوي بني معقل من بناء استقلالهم، نظراً لبعده عن مراكز السلطة، وصعوبة إخضاعه عسكرياً. وقد أشار جاك بيرك إلى أن: "المجالات الصحراوية ظلت تاريخياً فضاءً مفتوحاً أمام استقلال القبائل عن السلطة المركزية" (Berk, 1955، ص. 182).

كمت كان للدور العسكري للقبيلة دور فقد اعتمد بنو معقل على قوتهم القتالية القائمة على الفروسية والتنقل، مما جعلهم قوة عسكرية فعالة قادرة على فرض النفوذ دون الحاجة إلى جهاز منظم. وفي هذا الإطار، تشير بعض الدراسات إلى أن بني معقل لم يكتفوا بالاستقلال، بل دخلوا في علاقات تحالف مع قوى سياسية قائمة، مثل الدولة المرينية، حيث قدموا الدعم العسكري، واستفادوا في المقابل من الاعتراف بنفوذهم يتضح أن بني معقل انتقلوا من قوة قبلية تابعة ضمن تحالفات سياسية إلى قوة مستقلة مهيمنة على المجال الصحراوي، وقد أدى هذا التحول إلى بروز كيانات قبلية شبه مستقلة، وتقليص نفوذ الدولة المركزية في الأطراف، ما مكّهم من إعادة تشكيل الخريطة السياسية للمغرب الوسيط، بل إن توسع بني معقل يمكن ربطه، في بعض الأحيان بظاهرة تفكك السلطة السياسية، حيث ملأت القبائل الفراغ الذي تركته الدولة، خاصة في المناطق الهامشية.

الأثر الاجتماعي لهجرة بني معقل

أفضت هجرة بني معقل إلى بلاد المغرب الإسلامي إلى تحولات عميقة في البنية الاجتماعية والتركيبية الديموغرافية، حيث أسهمت في إعادة تشكيل العلاقات القبلية وإنتاج أنماط جديدة من الانتماء الاجتماعي، تجاوزت التقسيمات التقليدية بين العرب والبربر. وتُبرز نصوص ابن خلدون هذا التحول بوضوح، إذ يقول في كتاب العبر: "وكثروا بمن انضاف إليهم من القبائل من غير نسبهم" (ابن خلدون، 1971، ج. 6، ص. 75-76)، ويكشف هذا النص عن آلية أساسية في تشكل القوة الاجتماعية لبني معقل، وهي الاستيعاب القبلي، حيث لم يظلوا جماعة منغلقة نسبياً، بل تحولوا إلى إطار قبلي مفتوح استقطب جماعات بشرية متعددة، خاصة من القبائل الأمازيغية المجاورة. وفي موضع آخر، يؤكد ابن خلدون هذا المعنى بقوله: "التحموا بمن جاورهم من الأمم، فصاروا معهم كأنهم منهم" (ابن خلدون، 1971، ج. 6، ص. 75-76)، ويعكس هذا القول درجة عالية من الاندماج الاجتماعي، حيث لم يقتصر الأمر على التعايش، بل تجاوز ذلك إلى الاندماج الثقافي والقبلي، مما أدى إلى تراجع الحدود الفاصلة بين المكونات السكانية.

يمكن تفسير هذا التحول الاجتماعي من خلال مجموعة من العوامل البنيوية، كمرونة البنية القبلية اتسمت القبيلة في الغرب الإسلامي بقدرتها على استيعاب عناصر خارج نسبها، وهو ما أتاح لبني معقل توسيع قاعدتهم البشرية. وفي هذا السياق، يشير جاك بيرك إلى أن: "القبيلة في المغرب ليست بنية مغلقة، بل إطار اجتماعي قابل لإعادة التشكل وفق التحالفات والاندماجات" (Berk, 1955، ص. 201).

التمازج العربي-البربري فقد أدى احتكاك بني معقل بالقبائل الصنهاجية وغيرها إلى نشوء مجتمع مركّب، تتداخل فيه العناصر العربية والأمازيغية. وقد عبّر عبد الله العروي عن هذه الظاهرة بقوله: "تاريخ المغرب هو تاريخ تفاعل مستمر بين العنصرين العربي والأمازيغي" (العروي، 2000، ص. 125-126) إعادة تشكيل الهوية الاجتماعية فقد نتج عن هذا التمازج ظهور هويات جديدة، من أبرزها الهوية الحسانية المرتبطة بفرع بني حسان، والتي تمثل نموذجاً لمجتمع صحراوي ذو أصول مختلطة، يجمع بين الانتماء العربي والمكونات المحلية الأمازيغية.

تراجع مفهوم النقاء النسبي للأنساب فقد أدّى الاندماج الواسع إلى تراجع فكرة النسب الصافي، وحلول مفهوم الانتماء القبلي المركّب، القائم على الولاء والتحالف أكثر من الأصل العرقي. وقد لخص بعض الباحثين هذه الظاهرة بعبارة دالة: "تَبَرَّزَ العرب وتَعَرَّبَ البربر"⁵، وهي عبارة تعبّر عن عملية تفاعل مزدوجة، حيث لم يكن التأثير في اتجاه واحد، بل كان تبادلياً، نتج عنه مجتمع جديد بخصائص مميزة. يتضح أن هجرة بني معقل أسهمت في تفكيك البنيات القبلية المغلقة وتعزيز التمازج العربي-البربري وظهور هويات اجتماعية مركبة (مثل الحسانية)، كما عملت على إعادة تعريف الانتماء القبلي خارج الإطار النسبي الضيق، وعليه فقد ساهمت هذه الهجرة في بناء مجتمع صحراوي جديد قائم على التحالفات والاندماج، مما يعكس حركية اجتماعية مميزة في تاريخ المغرب الوسيط.

الأثر الاقتصادي لهجرة بني معقل

أفرزت هجرة بني معقل إلى بلاد المغرب الإسلامي آثاراً اقتصادية مركّبة، اتسمت بازدواجية واضحة بين التنشيط والاضطراب، خاصة في المجال الصحراوي الذي شكّل مجال نفوذهم الأساسي. فقد أسهمت هذه القبائل في إعادة توجيه النشاط الاقتصادي من النمط الزراعي الحضري إلى نمط رعوي-تجاري مرتبط بحركية القوافل. فمن جهة أولى، لعب بنو معقل دوراً مهماً في تنشيط التجارة الصحراوية، حيث مكّن انتشارهم في مجالات درعة ووادي نون والصحراء الكبرى من تأمين طرق القوافل الرابطة بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. وفي هذا السياق، يشير ابن خلدون في كتاب العبر إلى طبيعة علاقتهم بالمجال الصحراوي، مؤكداً ارتباطهم بالترحال والسيطرة على مجالات الانتجاع، وهو ما أتاح لهم التحكم في مسالك العبور والتبادل (ابن خلدون، 1971، ج. 6، ص. 77-78).

كما يؤكد الباحث جاك بيرك أن: "القبائل الصحراوية لعبت دور الوسيط في التجارة العابرة للصحراء، من خلال تأمين المسالك وتنظيم حركة القوافل" (Berk, 1955، ص. 210) ويعكس هذا

الدور تحوّل بني معقل إلى فاعل اقتصادي أساسي، حيث لم يقتصر نشاطهم على الرعي، بل شمل أيضاً الوساطة التجارية، مما ساهم في ربط اقتصاد المغرب بعمقه الإفريقي. غير أن هذا التأثير الإيجابي قابله جانب سلبي تمثل في انتشار النمط البدوي على حساب الاستقرار الزراعي والحضري. فقد أدى توسع بني معقل إلى تراجع بعض المراكز الحضرية، خاصة في الأطراف، نتيجة هيمنة نمط العيش القائم على الترحال. وفي هذا الإطار، يذهب عبد الله العروي إلى أن: "انتشار البداوة في بعض مراحل تاريخ المغرب كان عاملاً في إضعاف البنيات الحضرية والزراعية" (العروي، 2000، ص. 130).

يمكن تفسير هذا التأثير الاقتصادي المزدوج إلى التحول في نمط الإنتاج، وانتقال النشاط الاقتصادي من الزراعة المستقرة إلى الرعي والتنقل والتجارة الصحراوية، كما عمل على التحكم في شبكات التبادل التي أسهمت في سيطرة بني معقل على الطرق الصحراوية وتأمين القوافل، وفرض نوع من الهيمنة الاقتصادية على المبادلات التجارية. كما أن هشاشة الاستقرار الحضري أدى إلى انتشار البداوة وتراجع بعض الحواضر وضعف الإنتاج الزراعي في بعض المناطق. وإعادة تشكيل المجال الاقتصادي فقد تحولت الصحراء من مجال هامشي إلى فضاء اقتصادي نشط، لكنه أقل استقراراً.

يمكن إدراج الأثر الاقتصادي لهجرة بني معقل ضمن إطار أوسع من التحولات التي عرفها المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، حيث أسهمت هذه الهجرة في إعادة تشكيل البنية السكانية ديموغرافياً، وتعريب واسع، خاصة في المجال الصحراوي لغويا، والتحول من التبعية إلى الهيمنة القبلية سياسياً ونشوء مجتمع عربي-بربري مركب اجتماعياً، وتأثير مزدوج بين تنشيط التجارة واضطراب الاستقرار الاقتصادي، ومن هذا المنظور، لا يمكن فهم هجرة بني معقل باعتبارها حدثاً معزولاً، بل تندرج ضمن حركة تاريخية كبرى لتعريب المغرب الإسلامي، ومرحلة انتقالية من مجتمع ذي غالبية بربرية إلى مجتمع مركب تتداخل فيه العناصر العربية والأمازيغية. وقد كان دور بني معقل حاسماً، خصوصاً في إدماج المجال الصحراوي ضمن الحركة الاقتصادية، وخلق امتداد تجاري وثقافي يربط المغرب ببلاد السودان الغربي.

خاتمة 5.

تبين من خلال هذه الدراسة أن هجرة بني معقل إلى بلاد المغرب الإسلامي لم تكن مجرد حركة انتقال سكاني عابرة، بل مثلت ظاهرة تاريخية مركبة أسهمت بعمق في إعادة تشكيل البنيات الديموغرافية والثقافية والسياسية، خاصة في المجال الصحراوي. فقد كشفت المعطيات المصدرة، وعلى رأسها روايات

ابن خلدون في كتاب العبر، أن هذه القبائل انتقلت من وضعية عددية محدودة إلى فاعل تاريخي مؤثر، بفضل آليات التكيف، والتحالف، والاندماج.

لقد أظهرت الدراسة أن أثر بني معقل تجلّى في عدة مستويات متداخلة، فمن الناحية اللغوية، أسهموا في تعريب المجال الصحراوي ونقل العربية من إطارها الحضري إلى فضاء التداول اليومي. ومن الناحية الاجتماعية، ساعدوا في إنتاج مجتمع مركّب قائم على التمازج العربي-الأمازيغي، بما أفضى إلى بروز هويات جديدة. أما سياسياً، فقد مثّلوا نموذجاً لتحول القبيلة من التبعية إلى الاستقلال، مستفيدين من هشاشة السلطة المركزية. في حين تجلّى أثرهم اقتصادياً في تنشيط التجارة الصحراوية، مقابل إضعاف بعض مظاهر الاستقرار الحضري.

وبناءً على ذلك، يمكن اعتبار هجرة بني معقل جزءاً من سيرونة تاريخية أوسع، تتمثل في حركة التعريب التي عرفها المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، والتي لم تكن نتيجة عامل واحد، بل حصيلة تفاعل معقد بين الهجرات، والبنىات القبلية، والظروف السياسية والاقتصادية.

إن دراسة هذه الهجرة تكتسي أهمية خاصة، لا لكونها تسهم في فهم تاريخ قبيلة بعينها فحسب، بل لأنها تمكّن من استيعاب آليات التحول التي عرفها المجتمع المغربي، وانتقاله من بنية قبلية ذات غالبية أمازيغية إلى فضاء اجتماعي وثقافي مركّب تتداخل فيه العناصر العربية والمحلية. ومن ثمّ، فإن بني معقل يبرزون كأحد الفاعلين الرئيسيين في تاريخ المغرب الوسيط، ضمن منظومة أوسع من القوى التي أسهمت في صياغة ملامحه الحضارية.

قائمة المراجع والمصادر

1. كتاب العبر، ابن خلدون، ج6، دار الفكر، بيروت، ط2، ص 66.
2. عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، ص 112.
3. Berk, J. (1955). *Structures sociales du Haut Atlas*. Paris: Presses Universitaires de France.

)

